مشروع الأمير عبد القادر التثقيفي

(ب) بغدود مريم وإشراف (د)كرد محمد جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر

Baghdoud.meriem@gmail.com

ملخص بالعربية:

اهتم الأمير في دولته بالميدان الثقافي رغم أنها مستعمرة لأنه يعرف قيمة العلم بما أنه كان عالما ومعلّما، كما أنه مدرك أنّ الدولة الحديثة لا يمكن تأسيسها مع شعب جاهل

ومن بين القوانين التي أصدرها والأعمال التي أنجزها تخص هذا المجال نجد: تأسيس مكتبة، معاقبة كل مُهمل للكتاب، تقديم منح للطلبة، مجانية التعليم، العفو عن الطلبة الذين ارتكبوا جرائم ويجب إعدامهم لأنهم لهم رصيد علمي، فتح مدارس.

كما ركز على ثقافة الجهاد والتي تتمثل في صنع الأسلحة، وتدريب وتنظيم الجيش.

ملخص بالانجليزية:

L'Emir Abd Alkader gave importance to the cultural field in his government even if it was a colony. He did so because he knew the value of knowldge in addition he was a scientist and a teacher .He realised that a modern government couldn't be established by an unlettered citizens.

Among of the laws that he put and the deeds he achieved concerning this field : The establishment of the library, penilizing every one who ignored the book , granting scholarships, forgiving all the students who made crimes and avoid excuting them since they had a certain educational background, constructing schools.

Furthermore.he focused on El Jihad by producing weapons, training and organizing the army.

كلمات مفتاحية: الأمير عبد القادر، الثقافة والتثقيف، التصوف، الشعر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تقاس قيمة الشعوب بمستواها الثقافي، والواقع يشهد ذلك فلو لاحظنا الدول المتقدمة لوجدنا أنّها هي التي تقل فيها نسبة الأمية وعلى عكس ذلك الدول المتخلفة، ولنأخذ على سبيل المثال فرنسا والمالي فكلما كان الإنسان، من بين النقاط الأساسية التي اهتم بها الأمير في تأسيس دولته هو تثقيف نفسه وكذا شعبه إذا كان عبد القادر أميرا للدولة الجزائرية في فترة استعمار فإلى أيّ مدى استطاع الاهتمام بمشروعه الثقافي والنجاح فيه؟

كان الأمير متأكداأنه لا حضارة دون ثقافة لقد كان الأمير يقدس العلم والعلماء إذ أنّ هو نفسهكان يتكلف شخصيا بتدريسالأمير حيث" كان يلازم الدرس العُمومي والمحاضرة الموجهة، يلقيها على الجنود... بحيث كانوا يفضون صلاتهم في جوّ العلم، وكان يقضي جزءا كبيرا من وقته – لاسيما زمن الهدنة والمسالمة – في تعليم الناس داخل المساجد وفي الهواء الطلق، أينما حلّ وارتحل" 1

سعى الأمير إلى تعليم الناس متى سمحت له الفرصة وربما هو يطبق الفكرة القائلة خيركم من تعلم العلم وعلمه وفعله هذا هو صدقة جارية، لكن للأسف في وقتنا الحالي كل من يملك علما يبخل به لنفسه، بأدنى فكرة إلا فئة قليلة، فمثلا الكثير من يملك كتب وإذا احتجها منهم فلن يساعدوك لا خوفا على ضياع كتبهم وإنما رغبة بأن تبقى هذه الكتب بحوزتهم هم فقط .

ولتحسين المستوى الثقافي يقول الأمير"أصدرت التعليمات للمحافظة على المخطوطات في المدن، كما بين القبائل، وكان كل عربي يدان بتمزيق كتاب أو تدنيسه يعاقب بشدّة، واعتاد جنودي لمعرفتهم بحرصي على الكتب أن يحملوا لي المخطوطات التي يصادفونها في غزواتهم، وكنت أمنحهم المكافآت تشجيعا لهم، وقد أودعت هذه الكتب فيما بعد في المساجد والمحافل، بين يدي علماء أهل ثقة وكنت أنوي أن أنشئ في تاكدمت مكتبة واسعة، وكانت معظم الكتب التي خصصتها بدأت تكوينها في الزمالة" 2

ويظهر اهتمام الأمير بالعلم من خلال القوانين التي أصدرها والتي تخص العلم والعلماء نجد منها معاقبة كل من لا يحترم الكتب العلمية ويمزقها، تقديم منحة لكل حامل إليه كتابا تشجيعا له، ومن الأبعاد التي كان يسعى إليها هو تأسيس مكتبة غنية بالكتب لمختلف التخصصات لكن الحظ لم يسعفه لتحقيق ذلك الطموح، وأنشأ مكتبة في الزمالة فقط.

" وكانت دولة الأمير شهدت جهدا معتبرا في مجال نسخ المصاحف وتزويد القرى والقبائل بالأعداد المتأتية، اضطلعت بتلك المهمّة المحاضر والكتاتيب القرآنية"3،لقد بذل الأمير جهودا جبارة من أجل المحافظة على الثروة المعرفية الدينية ولعل أهمها هو المصحف الشريف.

إنّ الظروف الزمنية هي التي دفعت إلى الاهتمام أكثر بشؤون الحرب وما يتعلّق بها بدل الفنون والعلوم الأخرى، " إذ ليس من المعقول في شيء أن ندعو الناس لشهود حلقات الفنّ والطرب أو مجالس الشعر أو حتى إلى التفقه والاستزادة من العلم، وسيف الموت يحصد

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، دار الغرب، وهران، ط2، 2009، ص 360.
[2]. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مؤسسة الاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، ط2، 2001،ص 163.
[3]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر المفكّر، دار الغرب، وهران، ط2، 2009، ص81.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالجمود والعدوّ يفتك بالأعداد... على أنّه لابدّ أن نستدرك في الحين ، لنؤكّد أنّ المرامي الجهادية وإن كانت دفاعية في المقام الأوّل، إلاّ أنّها كانت في الحقيقة لا تخلو من جانب ثقافي يندرج ضمن الضرورة الجهادية ذاتها" 1

بما أن الفترة التي أنشأ فيها الأمير دولته هي فترة حرب، فإن التركيز كان على تعلم كل ما يخدم أمر الجهاد كالاهتمام بثقافة صناعة السلاح.

" فالمهمة التي كانت تلح على الطليعة المجاهدة مهمة مزدوجة: إذ كان عليهم أن يعلّموا أنفسهم بأنفسهم فنون الحكم والقيادة ليسوسوا الأهالي بروح مؤهلة لمقتضيات الجهاد، وذلك المطمح نفسه كان يحتّم عليهم أن يباشروا مهمّة تعليمية تستهدف الفئات الأهلية تأهيبا لها وتكييفا مع ثقافة المواجهة، من خلال بسط القيم التنظيمية والانضباطية التي تتطلّبها الحياة الجماعية الجديدة"2،إن الأمير ومساعديه لم يكونوا يحوزوا على شهادات في العلوم السياسية وما شابه ذلك، وإنما امتلكوا أفكارا بسيطة عن السياسة وحاولوا تطويرها عند امتلاك منصب سياسي.

" وكانت لرحلة الأمير آثار جمة في تكوين شخصيته الدينية والعلمية ونضج الفكر والاطلاع على أساليب الحكم والإدارة والميادين السياسية والاجتماعية والعمرانية، ودفعته إلى الشغف بالمطالعة والقراءة في شتى الفنون"3، لقد كان دور لرحلة الأمير في إعداد شخصية فذة قوية يشهد لها العالم بذلك، وفي تكوين ذات مثقفة مؤسسة لدولة مبدعة.

كان الأمير يرفع دائما من درجة العلماء، إذ يرى أن " العلم هو مقصود الإنسان وخاصيته التي خُلق لأجلها، والإنسان على رتبة بين البهائم والملائكة، فمن حيث يتغذى وينسل فنبات ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان، وإنما خاصيته معرفة حقائق الأشياء، فمن استعمل أعضاءه وقواه في تحصيل العلم والعمل فهو شبيه بالملائكة، ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى رتبة البهائم" 4

يرى الأمير أن الله ميز الإنسان عن باقي المخلوقات بالعلم، فالذي لا علم له هو حيوان، لكن يقدر الأمير الإنسان العالم ويشبهه بالملائكة.

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق،ص 329.
[2]. مرجع نفسه،ص 331.
[3]. عوني أحمد وآخرون، الأمير عبد القادر مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، مطبعة دحلب، الجزائر، د(ط)، 1996، ص178
[4]. الأمير عبد القادر، المقراض الحاد، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، د(ط،س)، ص26.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان الأمير عازما على تطوير مجال الصناعي وإقامة جامعة لكن الأقدار لم تشأ، إذ " استمرت الأعمال خلال سنتي 1838، 1839 بسرعة مذهلة، وكانت جميع الورش والمصانع تشتغل بكامل طاقتها، وبتجدد الحرب بسبب نقض الفرنسيين للمعاهدات لم يتمكن عبد القادر من تحقيق حلمه في إقامة جامعة مغربية، فالمعركة سارت به إلى أماكن أكثر بعدا"[1]

من بين طموحات الأمير هو إنشاء جامعة يُهتم فيها بتعليم التصنيع، وربما تدريس العلوم والتكنولوجيا والتقنية هي فكرة نجد لها بوادر في فكر الأمير.

وقد " سافر سنة 1236هـ إلى وهرانوحصّل منها، وأكمل دراسته وبرع في مختلف العلوم حتى فاق أقرانه بالأدب والتوحيد والفقه والحكمة العقلية، وكان يحفظ أكثر صحيح البخاري، كما كان له ولع بالفروسية والسلاح لا يُهملهما، فصار عالما فاضلا، وفارسا مدرّبا، وجمع بين السيف والقلم"[2] يمكن أن نقول عن الأمير أنه هو العالم المجاهد بما أنه مان ذو تكوين معرفي بالإضافة إلى متكونا في أمور الجهاد.

لما طالبه بعض أهل دمشق بالتدريس " فلبّى رغبتهم بكلّ امتنان، وتكونت حلقة درس ديني مؤلفة من واحد وستين طالبا وكانت تجتمع يوميا في الجامع الكبير، وكان الأمير يرأسها ولا يتخلّف عن حضورها، وقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف أساسا الدروس والمناقشات ولكن خلافا للمعلمين العاديين الذين لا تمتد قواهم العقلية إلى أكثر من ملاحظات وتعاليق عتيقة بالية عن الكتب المقدسة، فإنّ عبد القادر قد أثار استغراب أتباعه وأثلج صدورهم باختياره لنصوص من أعمال أفلاطون وأرسطو... "[3]

لم يكن الأمير يرد كل من توجه إليه لطلب العلم، فمثلا لما طلب منه أهل دمشق أن يقدم لهم دروسا علمية قبل الأمر، وقد درسهم أمورا دينية وأخرى فلسفية فهل هذا يعني أن الأمير جمع بين الحكمة والشريعة؟

" ولحرصه على العم ونشره فإنّه اشترى في دمشق دارا خصصها له وسماها دار الحديث، وأصبح الأمير العالم كالنحلة ينتقل من روضة إلى أخرى يشرح ويبين ويعلق"[4] وقد خصص الأمير دارا مستقلة لتعليم طلاب العلم.

" أثبت الصبي عبد القادر أن لديه ميلا إلى العلم، ورغبة في الاستزادة منه، فأرسله والده بمجرد بلوغه الرابعة عشره من عمره إلى وهران لاستكمال تعلمه، حيث أخذ على يد قاضيها سيدي أحمد- بن الطاهر علم الفلك والحساب والتاريخ المعاصر، وقد كان سريع الهضم لكل ما يقدم له من علوم، كما أظهر مهارة لا نظير لها في الفروسية."[5]

---

[1]. برونو إيتين، عبد القادر الجزائري، مرجع سابق،ص 169.

[2]. نزار أباظة، الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، دار الفكر، سورية، ط1، 1994، ص10.

[3]. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة سعود الباطنيين للإبداع الشعري، الكويت، ص 56.

[4]. المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 56.

[5]. سليمة كبير، من أعلام الجزائر في العصر الحديث، الأمير عبد القادر، المكتبة الخضراء، الجزائر، د (ط، س)، ص4.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إذا كان الكثير من الأطفال يرفضون الذهاب إلى المدرسة إلى بعد ضغط أولياء أمرهم عليهم فإن الأمير كان على العكس من ذلك وأبدى منذ صغره حبّه للعلم والعلماء، وقد شجعه والده على تنمية هذه الرغبة ففي سنّ الرابعة عشر أرسله إلى وهران لطلب العلم والمعرفة على يد القاضي أحمد بن الطاهر فأخذ عنه البعض من علم الفلك والتاريخ والحساب، كما أنّه كان متمكنا في الفروسية لافتا أنظار غيره.

والأمير عبد القادر الكثير من يهتمون كقائد لسياسي" لكنهم لا يهتمون كثيرا به كرجل فكر ساهم بشكل كبير في بناء نهضة عربية حديثة ليست وطنية فحسب، بل إنها قومية إسلامية... وكانت رؤيته تتجاوز الحدود الإقليمية ... وتظهر أفكاره وآراؤه بشكل جلي وواضح بما أحدثه على تنظيم دولته وعصرنتها في جميع ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكذا الثقافية وكان المقياس في بداية عصره لكل نهضة وتطور لمجموعة التنظيمات التي تشتمل عليها كل دولة وكل أمة، وكان ذلك ما أحدثه الأمير فعليا على مستوى التنظيم أو على مستوى الممارسة، ولذلك يعد من أوائل المفكرين والسياسة العرب المسلمين الذين ساهموا في بناء وتأسيس النهضة العربية الحديثة"[1]

اشتهر الأمير بحنكته السياسية لكن الكثير يَجهلون أن له ثراث فلسفي غني ومن الأوائل المحاولين تحقيق النهوض والتحضر بالأمة العربية الإسلامية على وجه الخصوص والإنسانية على وجه العموم، ومنه يمكن القول أنه من مفكري النهضة والحداثة.

إذ يُشهد للأمير بتميزه الثقافي فقد "كان للغرب التأثير الكبير على أغلب المفكرين العرب المسلمين الذين حملوا لواء النهضة العربية في القرن التاسع عشر، نظرا لاحتكاكهم بهم، فلولا ذلك الاحتكاك لما تبينوا واقعهم المتقهقر والمنحط، ويظهر ذلك بوضوح في فكر الطهطاوي مرورا بخير الدين التونسي، وانتهاء بمحمد عبده والأفغاني، ولكن ما تميز به الأمير عبد القادر عن أقرانه من المفكرين العرب المسلمين هو أن فكره التنظيمي والمؤسساتي كان إبداعا ذاتيا لم يحتك بالغرب ولم يتأثر به، بينما ما قام به هو يضاهي التنظيمات التي كانت في الغرب والتي كان يدعو إليها مفكرو النهضة وذلك سواء على مستوى التنظير أو الممارسة، وهذه خصوصية لابد من التركيز عليها في حياته" [2]

إن المفكر لا يبدع من عدم وإنما لابد من قاعدة فكرية يعتمد عليها، إذ أن بعض مفكري النهضة العرب المسلمين في تنظيرهم الساعين فيه إلى تحقيق تحضرهم ونهضة أمتهم قد تأثروا بالغرب، أما الأمير ليس هو معصوم التفكير وإنما قد تأثر بغيره من العرب كالعثمانيين الذين أخذ منهم إيجابيات حكمهم وكذا الملك عبد الرحمن، لكن ألا يعتبر الأمير مضطاعا على الفكر الغربي كالفلسفة الأرسطية، وإن كان حقيقة قارئا هل هذا يعني أنه بالضرورة متأثرا به؟

[1]. إسماعيل زروخي، مجلة الدردارة : أيام ملتقى 26 27 نوفمبر لمبايعة الأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، معسكر، عدد 5، ص20.
[2]. المرجع نفسه، ص20.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

" تلقى مبادئ العلوم الأولى في القطنه، وادي الحمام، ثم واصل دراسته في مدينتي آرزو ووهران. خلال عامي 1822 و 1824 حفظ القران، ودرس العلوم الدينية واللغوية، وتربى على روح الفروسية، وتدرب على حمل السلاح ... أولى الأمير قطاعالتعلم عنايةخاصةفجعلهمجانيا وبمتناولالجميع، وهذانظامبتكربالنسبةلذلكالوقت– وكانأول من أدخل نظام الوجبة الغذائية المدرسية... هذاعلى الصعيدالعام ... كما خصصت مبالغ لمساعدة طلاب العلم وشيوخ الزاويا، ورعاية المؤسسات الدينية والثقافية، ومد يد العون لسلك العلماء الفقهاء والمدرسين" 1

إذن لقد تلقى الأمير تكوينا دينيا ولغويا كما تلقى تدريبات تخص فني الفروسية وحمل السلاح، وهو من الأوائل الذين جعلوا التعليم مجانيا وهذا ما يؤكد تحفيزه لشعبه على طلب العلم، بل إنه خصص منحا مالية لطلاب العلم.

"ها هو ذا ما كتبه الأمير حول هذا الموضوع: كان أولئك الذين يبتغون قدرا أكبر من التقدم في دراستهم يرسلون مجانا إلى الزوايا والجوامع، فكانوا يجدون فيها طلبة قادرين على تكوينهم في التاريخ وعلوم الدين، كنت أُخصص للطلبة راتبا منتظما كانت قيمته تتفاوت حسب علمهم وجدارتهم وكانت أهمية تشجيع التعليم تبدو لي من الضرورة بمكان، بحيث إنني أكثر من مرة عفيت عن حكم بالإعدام على مجرم لسبب وحيد هو كونه طالبا " 2

لقد قدس الأمير العلم والعلماء ولاشك أنه في ذلك قد اقتدى بدينه الإسلامي، فأول ما نزل على الرسول من الكامل العارف الخالق هو اقرأ، ولهذا من بين الأبعاد الأولى التي سعى إليها الأمير في دولته هو نشر العلم، لأنه أدرك أنّ الحضارة لا يصنعها الأمية وإنما المثقفون، ونظن لأنه من السهل صناعة إنسان متحضر إذا كان مثقفا، لكنه من الصعب صناعة إنسان متحضر إذا كان أميّا، لأن المتعلّم يقبل النقاش والنقد والنصيحة إذا قدّمت له الحجج، لكن نقيضه متعصب لا يفهمك يحسب أن الحقيقة هو مالك لها.

وكانت الزمالة عاصمة الثقافة في دولة الأمير" لقد كانت فضاء أهليا تفاعلت فيه عوامل الثقافة... كما فتح المجال لتلاحمالطّبوع والمهارات الفنية والثقافية الوطنية، وتمخض عن ذلك التفاعل الإيجابي ميلاد الأسس الأولى لما يمكن أن يسمّى القالب الثقافي والجمالي الوطني الحديث، إذ أنّ الفئات الأهلية التي تساكنت في تلك الحظيرة القومية المتنقلة كانت متنوعة في تركيبتها البشرية، تنتمي إلى جغرافية الوطن بكاملها فالشاوي والقبائلي والتلي والصحراوي والكولوغلي والمسلم الرومي يتبادلون الخبرة ويصوغون نظما مدنية وانتفاعية في مجال التعايش

[1]. جورج الراسي، الدين والدولة في الجزائر، دار القصبة للنشر، الجزائر، د (ط)، 2008، ص 34، 41، 43.

[2]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 104.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجهادي والمرابطة"1فلقد تعايش هناك أفراد من مناطق عديدة، مما أدى إلى تعدّد الأفكار والتقاليد والخبرات والتخصصات فنتج فكر جديد.

"كان الأمير يحرص بنفسه على صيانة الكتب والمخطوطات وكان يعطي القبائل أوامر دقيقة من أجل صيانة الكتب، ويأمر بعقوبة صارمة في حق كل من يُمسك مُتلبسا بإتلافها أو تمزيقها، هكذا فقد أُنشئَت مكتبة كبيرة لجمع المؤلفات ، والمخطوطات ذات القيمة،كان الكثير منها يؤخذ إثر المعارك أو يُشتري أو يسلم من قبل جنوده الذين كانوا يُجزون على ذلك، لقد أُتلفت هذه المكتبة ذات الأهمية البالغة من قبل الجندية الفرنسية عند سقوط الزمالة في 1843 وقد كان لهذا تأثير بالغ في نفس الأمير" 2.

اهتمام الأمير بالعلم يمكن أن يتجلى من خلال القوانين التي أصدرها حيث كان يُعاقب كل اللامُعتني بالكتب والمتلف لها، وعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذه القوانين صُدرت في فترة الاستعمار، ومن هنا نستنتج أن الفكرة التي كانت تدور بذهن الأمير هي لا يمكن أن يستقل شعب جاهل، ولا يمكن أن يُحارب.

"لقد خصص الأمير لنفسه غرفة متواضعة في قصر دومار، في الضواحي الشرقية من دمشق، الذي كانت السلطات التركية قد منحته له ليقيم فيه، فكان في كل يوم يتوجه إلى المسجد بعد أن يفرغ من صلاة الفجر وتلاوة ما تيسر من القرآن فيصلي الصبح جماعة ثم يعود إلى بيته فيحضر دروسه مستعينا بالمكتبة التي جمعها في تركيا وفي دمشق على وجه الخصوص ثم يرجع بعد ذلك إلى المسجد ليصلي الظهر"3. إذن بعد انتهاء الأمير من اهتمامه السياسي خصص جل وقته للعبادة وطلب العلم.

"وقد كان لدى الأمير فضول الرجل المتلهف على المعرفة الذي كان يهتم بقضايا عصره، وخاصة ...الناجمة عن توسع الغرب "راعي الحضارة " ...إذ نجده ينشط في تشجيع حفر قناة السويس ... ومن المناسب هنا أن نذكر هذه التحية التي خصته بها الشركة قناة السويس في بيان لها: إننا نحب عبد القادر ونقدر المجهودات التي قام بها في دمشق خدمة للحضارة ، وأننا لنعترف بكل الأبعاد التي وصل إليها، وأننا لمتأكدون بأن عمال الشركة .. بعيدا عن عائلاتهم سيحتفظون له بالذكرى الطيبة للإقامة القصيرة التي قضاها بينهم"4

إذن الأمير كان متطلعا على الفكر المعاصر له وهذا ما دل إلا ويدل على أن الرجل كان مثقفا، ففي الجانب الفكري لم ير في فرنسيين أنهم الأعداء، بل رأى فيهم صدارة الفكر الحضاري خاصة منه الجانب الصناعي، وكان يشجع الإنسان أيما كان على الإبداع والتحديث، فقد سعى دائما أن يكون محتفظا بشخصية الإنسان الكامل التي من سماتها: الحب العلم، حوار الآخر، والالتزام الأخلاقي .

[1]. عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، مرجع سابق،ص 356.

[2]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، د (ط)، 2009، ص 104.

[3]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع سابق، ص 256.

[4]. المرجع نفسه، ص 269.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

" الاخلاق والتعليم فكانتا من أكبر اهتماماته مما جعله محل إكبار الجميع سواء من الأصدقاء أو من الخصوم، وهي صفة يتميز بها الأمير عبد القادر عن سائر زعماء الثورات في القرن 19م الموافق 13 هـ لأن العدو الفرنسي يحاربه بالجيش ويحاربه بالفكر بفضل ما كان يصطحب، ويستقدم من العلماءعلى مختلف تخصصاتهم "1.

ركز الأمير على التعليم في تأسيس دولته لأنه فَهم أن الحرب التي يقوم بها المستعمر هي حرب بالسلاح هذا من جهة ومن جهة أخرى هي حرب فكرية دينية، لأن من بين أهداف المستعمر هو طمس الثقافة والهوية العربيـــة الإسلامية، وما ينبغي الإشارة إليه هو أن الاحتلال الفكري هو أصعب من الاحتلال المسلح، لأن الأول يدمّر العقول ويفقدها خصوصيتها، وبالتالي الحرب الباردة أصعب من الحرب العسكرية.

"كما أن الممارسة الأخلاقية في نظر الأمير لن تتسم بأي معنى بدون ملكة المعرفة المتمثلة في قوة العلم، إذ أن الممارسة الأخلاقية للعمل الصالح تقتضي من صاحبها أن يكون عارفا بخاصية ومقصد فعله، قادرا على التمييز بين الصدق والكذب في الأقوال والحق والباطل في الاعتقادات والقبيح والجميل في الأفعال "2.

يعطي الأمير مكانة بالغة الأهمية للعلم، إذ يرى أن الإنسان إذا فعل فعلا ينبغي أن يكون عارفا بالفعل ونتائجه، فمثلا شهادة الأب في ابنه أنه ارتكب جريمة قتل لصديقه حيث رأى الفعل بعينيه، هذا فعل خير من الأب حتى وإن هذه الشهادة هي ستلحق بالابن إلى السجن المؤبد، فالإنسان ينبغي أن يكون عارفا قادرا على التمييز بين الخطأ والصواب، إذن العمل يجب أن يسبقه العلم، ويذكرنا هذا السياق بفكرة الغزالي " الحقيقة علم وعمل".

" لقد فرض الأمير نفسه في وسط العلماء ليس فقط بصفته فقيها وإنما كذلك كعالم ملم بالتاريخ والفلسفة وقد تعجبوا لما وجدوا معارفه تضم بالإضافة إلى أرسطو وأفلاطون علوم ابن خلدون وابن رشد، فكان العلماء يلتفون من حوله في شبه حلقة بالمسجد الأموي الشهير، وقد قرر مفتي دمشق أن يخصص له مكانا في هذا المسجد حتى يتمكن الطلبة من الاستفادة من علمه الغزير، وهكذا فان المقاتل المغوار ورجل الحكومة قد أصبح بعد ذلك أستاذا يلقن العلم" 3

كان الأمير ذو تكوين متعدد التخصصات، وكان يُسعد عندما يُطلب منه أن يعلمهم لأنه متأثرا بسنة رسوله التي تبين أن المعلم كاد أن يكون رسولا.

---

[1]. محمد الطاهر عزوي وآخرون، الصراع العسكري والثقافي بين الجزائر وفرنسا منذ عقد معاهدة التافنة سنة 1253هـ الموافق ل 1837م، الزمالة العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر، تيارت، ص 20.

[2]. عدة بن داهة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزّمان والمكان، مكتبة الرشاد، الجزائر، د (ط)، ص139.

[3]. عبد القادر بوطالب، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية – من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، مرجع سابق، ص 256.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"لا مشاحة أن الأمير يدرك أهمية العلم باعتباره محصلا للنهضة أو ما أصبح يعرف بالحداثة عبر قيمها المتعالية، خصوصا وأنه جسد هذا الحاصل المعرفي الذي منحه من جراء المجالسة والمطالعة في مدوناته المعرفية ومواقفه الإنسانية ... ولم يفترق إرهاص الخطاب العالمي عند الأمير بحضور الإنسان، بل أن مختلف المواضيع العالمية التي عالجها خصوصا في كتابه المقراض الحاد ارتبطت بالإنسان أما بشكل مباشر أو ضمني، مثل حديثه عن تأثير الجغرافيا والمناخ في شخصية الإنسان من خلال نمط الاستجابة "[1].

من بين ما ركز عليه الأمير في تحضير أمته هو العلم، حيث كان مؤمنا بأنه لا حضارة دون علم، وقد كان الأمير عالما إذ سعى لتحصيل المعرفة طوال حياته، وكوّن زوادته المعرفية من خلال مجالسة حواراته، حتى رحلاته كانت علمية ولاسيما رحلته إلى الحج، وكثيرا ما ربط العلوم بالإنسان، لأنه لا فائدة من علم لا يخدم الإنسان، ولهذا يمكن أن نلمح الإرهاصات الأولى للعلوم الإنسانية معه.

[1]. المرجع نفسه، ص 256.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com